مراجعة كتاب

الحج الكاثوليكي إلى الأرض المقدسة في القرن التاسع عشر

تأليف الأب د. يعقوب رفيدي

تاريخ النشر: ٢٠/١٢/٢٠٢٥م (العدد (٢٩)، شتاء ٢٠٢٦م)

مراجعة: جوزيف حزبون

المدير الإقليمي للبعثة البابوية في القدس

تقديم البطريرك ميشيل صباح

مراجعة وتدقيق اللغة العربية: البطريرك ميشيل صباح

منشورات المعهد الإكليريكي للبطريركية اللاتينية الأورشليمية

مطبعة البطريركية اللاتينية – القدس ٢٠٢١م

التمويل والتوزيع: مكتبة يسوع الملك

صورة الغلاف: باب الخليل خلال الاستقبال الرسمي للمبعوث البابوي، الكردينال لانجينو، عام ١٨٩٣م. وذلك بمناسبة المؤتمر الإفخارستي الدولي، وتظهر في الخلفية واجهة كنيسة القيامة.

صدر هذا الكتاب للأب د. يعقوب رفيدي من كهنة بطريركية اللاتين، في عام ٢٠٢١م، وكان قد أعده كأطروحة لنيل شهادة الدكتوراة من الجامعة الغريغورية الحبرية في روما. وقع الكتاب في (٤٢٣) صفحة من القطع العادي. وقد ارتكز بحثه على الحج الكاثوليكي إلى فلسطين والقدس، الذي تنامى بصورة متسارعة خاصة بين العام ١٧٩٩م والعام

١٩١٤م؛ أي بين فترة غزو نابليون بونابرت لمصر والشرق وبداية الحرب العالمية الأولى.

يتألف الكتاب من **ثلاثة أقسام**، عالج في **القسم الأول** منه مفهوم الحج وأصله ومعانيه والفترة المسيحية الأولى التي شهدت بعض الزيارات التي اتّسمت بطابع الفردية وتطورها خاصة بعد بناء أولى المزارات والكنائس الكبرى في زمن قسطنطين، وحتى وصول العرب المسلمين. فمن بين أوجه الحج، يذكر الكاتب الحج التعبّدي التقويّ الذي ينبثق من دوافع دينية وحاجة روحية داخلية، والحج التكفيري أو الحج بهدف التوبة، وهي رحلة روحية تهدف إلى التقشف والتضحية للتطهّر من الخطايا. وأخيرا، يذكر الكاتب حج اليوبيل أو حج السنة المقدسة، والذي بدأ مع البابا بونيفاسيوس الثامن نحو نهاية القرن الثامن، حيث يمنح المشاركون غفران الخطايا بعد مشاركتهم في مسيرة توبة.

أمّا الأماكن الرئيسة للحج، فهي الأماكن المقدسة في فلسطين والتي تباركت بحضور يسوع المسيح فيها، والتي تذكرنا بتجسّده وميلاده وحياته وموته وقيامته، وأيضًا الأماكن المرتبطة بوالدته مريم العذراء والرسل والشخصيات البارزة في العصر الرسولي (القرنين الأول والثاني للميلاد). وكانت طرق الحج في الفترة البيزنطية إما طريق البر الروماني من أنطاكية إلى القدس، أو طريق البحر عبر ميناء قيسارية أو عسقلان.

كذلك يتطرق الكاتب إلى الإطار التاريخي للحج من القرن الأول وحتى القرن الثامن عشر. يعدد الكاتب في هذه الفترة أولئك الحجاج الذين قاموا بزيارة حج إلى القدس، وكيف تطور مفهوم الحج في القرن الرابع، حيث أقر مرسوم غاليريوس عام ٣١١م بحرّيّة العبادة، وتبعه مرسوم قسطنطين عام ٣١٣، ومنذ تلك الفترة بدأ تسجيل أفواج من الحجاج إلى القدس. وتأثير قرار قسطنطين بإزالة المعابد الوثنية، وبناء كنائس فوق

أهم الأحداث المتعلقة بحياة يسوع المسيح؛ كنيسة المهد في بيت لحم فوق مغارة ميلاده، وكنيسة القيامة فوق موقع القبر، وكنيسة الإليونا فوق المغارة التي كان يصلي فيها على جبل الزيتون. أما اكتشاف الصليب الذي عليه علِّقَ يسوع، فأضحى موضوع تقوى وجذب للحجاج من سائر أنحاء العالم.

ثمّ يتناول الكاتب وضع الحج إلى القدس وفلسطين في الفترة الإسلامية الأولى والتحديات التي كانت تواجه الحجاج، ومن ثم حملات الفرنجة. حيث يذكر بعض المؤرخين أن الحملة الأولى عاشها أصحابها كرحلة حج للتوبة والتكفير وغفران الخطايا. ويخوض الكاتب في بعض تفاصيل التحديات التي كانت تواجه الحجاج في فترة الفرنجة، ومن ثم في فترة المماليك، ويذكر عددا من الحجاج الذين تركوا مذكرات مدونة عن رحلاتهم وما عاينوه خلال هذه الرحلات، والتي تشكل مصادر أولية مهمّة للمعلومات عن تلك الفترات. وأخيرًا، يتناول الباحث الفترة العثمانية وأثرها على الحج خاصة في ظل الحروب بين العثمانيين والقادة الغربيين التي جعلت السفر عبر البحر والإقامة في الأرض المقدسة أمرًا في غاية الخطورة.

يقدم المؤلف في هذا الفصل معلومات مثيرة للاهتمام، فقد كان بطاركة القدس منذ رحيل الفرنجة عن البلاد من الأساقفة العرب، أما أول ذكر لاستبدال الأساقفة العرب بأساقفة يونانيين فقد تم في العام ١٥٣٤م حين تم تعيين الأسقف جرمانوس بطريركا على القدس.

في **القسم الثاني** من الكتاب، يعالج رفيدي الحج الكاثوليكي إلى الأرض المقدسة تحت عنوان من الانبعاث إلى الازدهار ويغطي فيه مختلف العناصر التي أدت إلى إعادة إحياء الحج إلى القدس والديار المقدسة بين عام ١٧٩٩ و١٩١٤م. حيث قدم في هذا القسم ثلاثة فصول، أولها بعنوان «الشرق ينفتح مجددا على الغرب»، يشرح فيه رفيدي كيف أن تغير الظروف

السياسية والاقتصادية في أوروبا، بعد انتهاء مرحلة طويلة من النزاعات والاقتتال، واستتباب الأمن أخيرًا، واختراع السفن البخارية وتطور الملاحة البحرية، كلها عناصر أدت إلى تيسير عملية السفر والتنقل، مما كان له أثر إيجابي على إحياء الحج الكاثوليكي والأرثوذكسي والبروتستانتي إلى فلسطين. كذلك إنشاء الفرنسيسكان لبيوت الضيافة التي عرفت باسم الكازانوفا، ومرافقتهم للحجاج خلال تنقلهم بين القدس ومختلف الأماكن المقدسة، ساهم في التشجيع على الحج. ولا ينسى الكاتب أيضاً أثر الإصلاحات التي أدخلها النظام المصري في الدفع قدما بالحج المسيحي إلى فلسطين. وقد ازداد الشغف الغربي تجاه فلسطين على أثر الاتفاقيات والتحالفات بين الدول الغربية والسلطان العثماني مما دفع بالنمسا إلى تأسيس أسقفية بروتستانتية أنجلو بروسية. وقد دفعت هذه الخطوة البطريرك اليوناني إلى نقل الكرسي البطريركي من القسطنطينية إلى القدس، عام ١٨٤٥، وهو على ما يبدو السبب الرئيسي الذي دفع بالبابا بيوس التاسع إلى تأسيس بطريركية اللاتين عام ١٩٤٧،. إنشاء بيت الضيافة النمساوي ١٨٦٣ وزيارة الإمبراطور النمساوي إلى القدس عام ١٨٧٩، كلها ساهمت في زيادة الاهتمام بالحج إلى القدس.

وقد أدى إعادة تأسيس بطريركية اللاتين في القدس عام ١٩٤٧م، إلى استقطاب عدد كبير من الرهبانيات الكاثوليكية التي جاءت وافتتحت لها أديرة ومراكز في القدس ومحيطها مما رفع من مكانة القدس، وشجّع على القدوم إلى المدينة وزيارتها والإقامة في بيوت الضيافة لدى مختلف هذه الرهبانيات والتعرف على أنشطتها وأعمالها الخيرية. كذلك فإن حرب القرم واتفاقية باريس عام ١٩٥٦ أدت إلى تقوية دور فرنسا في القدس وفلسطين. وقد تصادف وصول أول بطريرك لاتيني «يوسف فاليرغا» مع القنصل الفرنسي بول إميل بوتا إلى نشوء علاقة قوية بين الإثنين أدت إلى إقامة الكثير من المشاريع والمبادرات. كما وتأسست جمعية مار منصور في فرنسا والتي

عملت على تنظيم رحلات حج إلى القدس بدءا من العام ١٨٥٣م.

أما رحلات الحج الجماعية، وعلى نطاق واسع، فقد انطلقت مع تأسيس شركة توماس كوك وأبنائه وتنظيمها رحلات «كل شيء مضمون»، وذلك في ستينيات القرن التاسع عشر. وسرعان ما حذت شركات أخرى حذوها وأصبحت رحلات الحج تتشكل من مجموعات منظمة تسير وفق مسارات دقيقة. فبدأت مجموعات كبيرة تتدفق إلى القدس وارتفع عدد الحجاج الإنجليز والأمريكان.

واهتم الآباء الأغسطينيون لسيدة الانتقال أيضًا بتنظيم رحلات حج جماعية وذلك انطلاقا من العام ١٨٨٢. وكان هدفهم تنظيم رحلات يمكن لمحدودي الدخل المشاركة فيها. وقد شارك في أول رحلة أكثر من ألف حاج من مختلف فئات المجتمع، تركت أثرا في نفوس سكان القدس قاطبة. هذه الزيادة في أعداد الحجاج، دفعت بالفرنسيين إلى إنشاء فندق «نوتردام دي فرانس» والذي تم افتتاحه في القدس عام ١٨٨٨م.

ولم تألُ الإرساليات الروسية من جهتها أي جهد في التشجيع على رحلات الحج وتنظيمها خاصة انطلاقا من عام ١٨٤٠. والتي كانت تحرص على النزول في القدس للمشاركة في صلوات عيد الفصح.

في **القسم الثالث** من الكتاب، يتحدث الكاتب عن الأماكن والشخصيات والاكتشافات. في الفصل الأول منه يذكر الخبرات الشخصية والجماعية للحجاج الذين توافدوا على القدس وفلسطين. وبالتالي الأرض المقدسة والدوافع الروحية وكذلك زيارة القدس، الكنيسة الأم وأولى الكنائس جمعاء. ويتناول الفصل الثاني موقف الكنيسة المحلية من الحج وتداعياتها الاجتماعية، الترحيب بالحجاج واستقبالهم والانفتاح على الكنيسة الجامعة، والشعور بالامتنان والعرفان، وأخيرًا الدعم المادي الذي كانوا يقدمونه

للكنيسة المحلية.

لا شك في أن الكتاب فريد في مضمونه وغزير بالمعلومات التفصيلية حول الموضوع. حيث يعود إلى فترة مهمة من تاريخ المسيحية في القدس وفلسطين، ويلقي الضوء على نشوء حركة الحج وأسبابها ودوافعها وتطورها، وهي حركة في غاية الأهمية لاقتصاد القدس ولدعم أهلها وتثبيت وجودهم في ظل التحديات التي تواجهها المدينة.